سلوين لويد.. ازمة السويس وكتابة التاريخ على الطريقة البريطانية:

فشل وزير الخارجية البريطانية الأسبق في أن يكون محايداً وموضوعيا عندما صرح بعدائه لعبد الناصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فقدت بريطانيا القدرة على التصرف بحرية ولم تعد تلك الامبراطورية المجيدة

عرض: د. عبدالقادرحسين ياسين*

■ في شهر تشرين الأول (أكتوبر) الماضي، وفي الذكرى الخمسين لـ «أزمة السويس»، أصدرت دار Jonathan Cape (واحدة من أشهر دور النشر البريطانية) طبعة جديدة من كتاب سلوين لويد، وزير الخارجية البريطانية الأسبق، Suez 1956. وقد أثار الكتاب عند صدوره ردود فعل متضاربة في الصحافة البريطانية، خصوصاً وأنه يتناول مسألة كثرت حولها الآراء والتكهنات.

يعرف القراء العرب سلوين لويد وزيراً للخارجية البريطانية، أثناء العدوان الثلاثي على مصر في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1956، ويجهل الكثيرون أن سلوين لويد كان من الساسة البريطانيين الأوائل الذين التقوا وتفاوضوا مع الرئيس المصري الراحل، جمال عبدالناصر، في السنوات الأولى لثورة 23 تموز (يوليو) عام 1952. ولعب لويد دوراً بارزاً في المفاوضات التي جرت حول مستقبل السودان، ودوراً أكثر أهمية في تأسيس The Central Treaty Organization منظمة المعاهدة المركزية (حلف بغداد)، بالإضافة الى دوره المميز أثناء أزمة السويس، سواء في الأمم المتحدة، أو في بريطانيا، أو في المحادثات السِّرية التي أجراها مع كل من فرنسا واسرائيل.

وقد خيَّب الكاتب آمال الكثيرين من النقاد، لأنه ـ خلافاً لما ورد في مقدمة الطبعة الجديدة ـ لم يكشف أسراراً جديدة، كما كان متوقعاً. ويرجع السبب في ذلك، في اعتقادي، الى أنه على الرغم من كونه وزيراً للخارجية والساعد الأيمن لأنطوني إيدن، رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، الا أن لويد كان شخصاً غير متميز في منصبه ويقول الدكتور روبرت كوك، أستاذ التاريخ البريطاني بجامعة أكسفورد، أن شخصية إيدن «طغت على شخصية وزير الخارجية»، وأن الأول كان يحرص على أن «يُسَيِّر الأمور الخاصة بالحكومة، والسياسة الخارجية بالتحديد، بنفسه». ومن هنا جاء كتاب سلوين لويد بمثابة تفسير وتبرير لما فعله رئيسه. أما الحقيقة الثانية فهي صدور كتابين مهمين سبقا كتاب لويد في الصدور بعدة سنوات، وكشفا الكثير من الحقائق والأسرار المتعلقة بأزمة السويس، وخاصة فيما يتعلق بالتنسيق البريطاني ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي، الذي يحاول سلوين لويد جاهداً إنكار وجوده.

أما هذان الكتابان فهما The Story of My لموشيه دايان، وزير الدفاع الإسرائيلي Life الراحل، وSuez لشارل بينو، وزير الخارجية الفرنسية آنذاك.

ويتضح من الكتاب أن سلوين لويد بذل قصارى جهده لمعارضة ما ورد في كتابي دايان وبينو، في بعض المسائل الثانوية (مثل التضارب في مواعيد بعض الاجتماعات)، معتقداً أنه، بذلك، سينفي عن نفسه وعن حكومته صفة التواطؤ مع كل من فرنسا واسرائيل.

وقد أكد كل من موشيه دايان وشارل بينو، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الدول الثلاث (بريطانيا وفرنسا واسرائيل) كانت عازمة على وضع حد لحكم الرئيس جمال عبدالناصر، ولو إستلزم ذلك استخدام القوة العسكرية. فقد تركزت فكرة الإطاحة بعبدالناصر في أذهان زعماء الدول الثلاث حتى قبل أن يقوم الزعيم المصري بتأميم قناة السويس.

وهكذا جاءت «حملة السويس» لا للرد على قرار التأميم الذي اعتبره سلوين لويد «خرقاً فاضحاً للاتفاقية الدولية حول قناة السويس» و«سببا كافياً» لاستخدام القوة ضد «دكتاتور حاقد ومصاب بجنون العظمة يريد أن يفرض سيطرته على الممر المائي» (كذا!!)، وانما كانت محاولة قامت بها الدولتان الاستعماريتان واسرائيل للإطاحة بحكم وطني في العالم العربي.

كانت بريطانيا أول من شعر بهذا الخطر، لأنه كان قائما في منطقة نفوذ مباشر لها، ولأنها فشلت، غير مرة، في الإطاحة بهذا الحكم أو ثنيه عن عزمه، وذلك من خلال وضع العراقيل أمامه. وعملت فرنسا (أثناء حكم موليه) على تحقيق الهدف نفسه، منذ أن وجدت في النظام الجديد في مصر العزم على دعم الثورة الجزائرية بالمال والسلاح، وتأمين التغطية الإعلامية الكافية لها.

ويعترف وزير الدفاع الإسرائيلي الراحل، موشيه دايان، في مذكراته الآنفة الذكر، بأن دعم الرئيس المصري جمال عبدالناصر للثورة الجزائرية «كان من أهم الأسباب التي دفعت فرنسا الى تزويد اسرائيل بكافة أنواع الأسلحة».

أما بالنسبة لإسرائيل، فإن وجود حكم عربي وطني متحرر من القيود التي يمكن أن تمنعه من مواجهة اسرائيل عسكرياً كان أمراً لا يمكن التسليم به. وقد عزَّزت هجمات الفدائيين الفلسطينيين، المنطلقين من قطاع غزة، قناعة دافيد بن غوريون، رئيس وزراء اسرائيل آنذاك، بضرورة الإطاحة بعبدالناصر، قبل أن يؤمم قناة السويس ويمنع السفن الإسرائيلية من استخدام هذا الممر المائي. فقد أشار بن غوريون في مذكراته الى إقالة موشيه Israel : A Personal History شاريت، وزير الخارجية آنذاك (حزيران ـ يونيو 1956) «لأنه كان العضو الوحيد في الحكومة الإسرائيلية الذي يعارض استخدام القوة العسكرية ضد مصر». ورأى بن غوريون أن وجود موشيه شاريت في الحكومة «يضر بمصلحة اسرائيل».

لقد أغفل سلوين لويد كل هذه الحقائق، وضمَّن كتابه الحجج الواهية نفسها، التي لم تقنع أحداً، حتى في عام 1956.

منذ السطور الأولى، فشل وزير الخارجية البريطانية الأسبق في أن يكون محايداً وموضوعياً. فقد صرَّح بعدائه الشديد لعبدالناصر... ويزعم لويد أن كراهيته للزعيم المصري الراحل لم تؤثر على موضوعيته. فقد دفعت الكراهية لويد الى الخوض في التفاصيل اعتقاداً منه بأنه يبرر بها مواقفه هذه. فقد كان دائماً يزعم بأن عبدالناصر «لم يكن أهلاً للثقة، لأنه لم يحفظ عهداً».

ويقول لويد أن عبدالناصر «نكث وعداً» قطعه اليه بأن «تتوقف أجهزة الإعلام المصرية عن مهاجمة بريطانيا». اذا ما توقفت الأخيرة عن محاولاتها لاستدراج الأردن (أو أية دولة عربية أخرى) الى حلف بغداد غير العراق.

ويُرجع لويد تصرفات الرئيس المصري هذه الى «نزعة تآمرية» متأصلة فيه (كذا!!). كيف توصل لويد الى هذا الاستنتاج؟ يستند وزير الخارجية البريطانية الأسبق الى ما قاله عبدالناصر له بأنه منذ أن كان ضابطاً صغيراً ورأى التدخل المُهين لبريطانيا في الشؤون الداخلية المصرية «بدأ يتآمر للإطاحة بالنظام الملكي والنفوذ البريطاني».

ولا يرى لويد أن قيام عبدالناصر باخفاء خططه حول مستقبل القناة جزء من سيادة مصر، ودفاع عن مصالحها الوطنية، التي لا يحق لأية جهة أجنبية أن تتدخل بها، بل يُرجعه الى «النزعة التآمرية» في شخصية عبدالناصر. ولكن لويد لا يرى أي «نزعة تآمرية» في الأساليب التي لجأت اليها كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل في تخطيطها لضرب مصر. ويزعم لويد بأن سوء النية لم يكن متوفراً آنذاك، وانما الهدف كان «وقف دكتاتور حاقد عند حدِّه».

هل كانت «حملة السويس» خطأ؟

هل كان هناك تواطؤ بريطاني ـ فرنسي ـ اسرائيلي؟

هل نجحت الحملة في تحقيق أهدافها؟

على السؤالين الأولين يجيب لويد بـ«لا». بينما يؤكد أن الحملة قد حققت أهدافها.

هل ارتكبت بريطانيا خطأ في عدوانها على مصر؟

في الواقع يشكل هذا السؤال محور الكتاب، ويحاول لويد أن يثبت صحته في كل فصل من فصوله. وفي هذا المجال ينقل لويد فقرات من أحاديث وآراء لأكاديميين بريطانيين بارزين، تجادل بمشروعية اتخاذ بريطانيا اجراءات عسكرية ضد مصر، وبعدم مشروعية تأميم قناة السويس.

إن مزاعم لويد بأن ما قامت به بريطانيا «يستند الى القانون الدولي» لا تغير من حقيقة العدوان الذي قامت به الدول الثلاث ضد دولة مارست حقها الطبيعي (الذي يُقره القانون الدولي العام) بفرض سيادتها على مواردها الوطنية.

وفي محاولة لتبرير ما قامت به الدولتان الاستعماريتان قام لويد بعقد مقارنة بين جمال عبدالناصر والزعيم النازي أدولف هتلر، وبين «فلسفة الثورة» و Mein Kampf «كفاحي».

وفي كل فصل من فصول الكتاب يذكر المؤلف القارئ بما قام به الزعيم النازي من احتلال قسم كبير من أراضي تشيكوسلوفاكيا، وكيف أن الفشل الأوروبي (وخاصة البريطاني) في الرد على خطوة هتلر هذه كان السبب الرئيسي في إشعال الحرب العالمية الثانية، وما جرّته على البشرية من ويلات، وكيف أن الرئيس المصري (وآراءه المدونة في كتابه «فلسفة الثورة») كان يشكل «خطراً مماثلاً» (كذا!!).

ويرفض سلوين لويد، بإصرار، وجود أي تواطؤ، وينكر أن يكون له (أو للحكومة البريطانية) أي علم بالتواطؤ الفرنسي ـ الإسرائيلي، ويؤكد أن حكومته «علمت بالتنسيق العسكري الفرنسي ـ الإسرائيلي قبل أيام قليلة من وقوع الهجوم الإسرائيلي على سيناء (في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1956)».

وحتى لو أخذنا بصحة مزاعم لويد هذه، فان الحقائق تؤكد أن الحكومة البريطانية أعدت خطة لحملة عسكرية أطلقت عليها اسم «Musketeer» في شهر آب (أغسطس) عام 1956، لاحتلال منطقة قناة السويس. ويؤكد موشيه دايان في كتابه «قصة حياتي» أن The Story of My Life فرنسا كانت متواطئة مع اسرائيل، وأن بريطانيا «كانت على علم بذلك، وكانت في الوقت نفسه تنسق خططها العسكرية والدبلوماسية مع فرنسا».

ويمر سلوين لويد، مرور الكرام، على حدث غاية في الأهمية، وهو موافقة الحكومة الفرنسية، في أيلول (سبتمبر) 1956، على اعطاء أسلحة متطورة لإسرائيل، ومن بينها عدد كبير من طائرات «مستير». ولا يشير الى التقارير التي نشرتها الصحف البريطانية في حينه، والتي أكدت أن هذه الأسلحة والطائرات كانت تنقل عن طريق القواعد الجوية البريطانية في قبرص.

هل نجحت حملة السويس في تحقيق أهدافها؟

على الرغم من فشل العدوان، وما نتج عنه من هبوط في سمعة بريطانيا وفرنسا، فان سلوين لويد يصر على التأكيد بأن العدوان نجح في مجالات مهمة:

* «تثبيت الحكومات الموالية للغرب التي كان عبدالناصر يشكل تهديداً لها». وتقليص نفوذ عبدالناصر. ومن نافلة القول أن العدوان أدى الى تثبيت نظام عبدالناصر، وأن الحركات العسكرية في المنطقة العربية بدأت تعمل، منذ ذلك الحين، للإطاحة بالأنظمة الموالية للغرب.

* يزعم لويد أن «حملة السويس» نجحت في «تأخير أزمة النفط الى عام 1973»؛ فهو يرى أن عبدالناصر كان «سيملي شروطه الخاصة لاستخدام قناة السويس». ونتيجة لذلك «سيتسنى له الإمساك بشريان النفط الذي يمر عبر قناة السويس بيديه». وأن الحملة نجحت في منع الرئيس المصري من القيام بذلك.

إن أي مراقب محايد لا يمكن أن يقتنع بهذه المزاعم لسبب بسيط، وهو أن بريطانيا، بصورة خاصة، (في العراق وايران) والدول الغربية، بصورة عامة، كانت مهيمنة على الثروة النفطية في المنطقة، وأن أكثرية (إن لم تكن كافة) حكومات الدول المنتجة للنفط كانت مُسَيَّرة من قبل بريطانيا (باستثناء تجربة الدكتور محمد مصدق في ايران).

لقد استطاعت الدول الغربية، وطوال ما يزيد على سبعة أعوام، الحصول على نفط المنطقة، عن طريق البحر الأبيض المتوسط، أو عن طريق رأس الرجاء الصالح.

وبعد؛

إن كتاب سلوين لويد يبقى نموذجاً للمواقف البريطانية تجاه الأمة العربية ومشاكلها، هذه المواقف غير الواقعية التي سببت للأمة العربية، بصورة عامة، وللشعب الفلسطيني، بصورة خاصة، المآسي التي ما زلنا نعاني منها. والموقف البريطاني الأخير المؤيد للعدوان الأمريكي السافر على العراق والحرب الاسرائيلية على لبنان في تموز (يوليو) الماضي خير دليل على ذلك. وعلاوة على ذلك فإنه يبقى تبريراً سطحياً وساذجاً لعدوان أجمعت الأسرة الدولية على ادانته، واعترفت الحكومات البريطانية المتعاقبة بخطئه وقصر نظر أولئك الذين خططوا له.

وليس ثمة شك في أن الكتاب كان سيكتسب أهمية أكبر لو كلف المؤلف نفسه عناء البحث في أسباب فشل أنطوني إيدن في إدارة الأزمات، أو في تفهم المتغيرات الدولية، وتحليل التغييرات التي طرأت على السياسة البريطانية بعد تأميم قناة السويس.

إن النتيجة التي يمكن أن نستخلصها من كتاب Suez 1956 هي حقيقة أنه، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فقدت بريطانيا القدرة على التصرف بحرية (كما اعتادت في الأيام الخوالي، عندما كانت الإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس) دون استشارة الولايات المتحدة الأمريكية.

إن معارضة الرئيس الأمريكي آيزنهاور، ووزير خارجيته جون فوستر دالاس، للعدوان الثلاثي، لا تعدو كونها محاولة لإفهام بريطانيا ذلك، و «وضعها في حجمها الحقيقي».

وقد أدركت الحكومات البريطانية (العُمَّالية والمحافظة، على حد سواء) ذلك، وأخذت تؤقلم نفسها للعيش في ظل هذا الواقع الجديد. ولعل ما حدث في العراق يبين الحجم الحقيقي للدور الذي تقوم به كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، كل على انفراد، وبالاشتراك.

* كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في السويد

«المنسي» ذاكرة في الحاضر للطيب صالح:

عمل ادبي تتمازج السيرة الذاتية فيه لتفصح عن البيئة وتعري الذات «المنسي» يحقق انتصارات ويصاب بانكسارات تدخله في قلب العالم

محمد زكريا السقال*

■ «المنسي» عمل أدبي للطيب صالح صدر عن دار الريس للنشر عام 2004، هو سرد يتناول الذاكرة والسيرة الذاتية. يلقي الضوء على مرحلة من حياة الكاتب، عبر شخصية تمتاز بالملاحة والظرف وهو المنسي أو الدكتور مكايل أو لا هم، فبطل العمل حالة ذات تتميز، تتفرد وتتعمم. بذلك تكون أمام نموذج للشخصية العربية في محاولة للالمام بها من جميع جوانبها وفي سياق ظروفها.

الطيب صالح، القامة الروائية العربية العالية، صاحب «موسم الهجرة الى الشمال» و«دومة ود حامد» و«ضو البيت» و«عرس الزين»، لا يقدم عملا روائياً في «المنسي»، بل يقدم سرداً قصصياً جميلاً يتناول فيه نموذجا للشخصية العربية باعتبارها ذاتا تتفاعل مع واقعها المليء بالتعقيدات والهزائم، شخصية تتميز بالقدرة على الشطارة والقدرة على الأونطة، بعدم الجاهزية وانتفاء التخطيط. المنسي يُقدم على الوقائع التي تواجهه معتمدا على الفهلوية وسياسة الحلبسة كما يطلق عليها «المنسي» بطل الرواية.

يحقق المنسي انتصارات بهذه السياسة ويصاب بانكسارات، تدخله في القضايا العامة وتجعله يخوض مواجهات في الندوات ومحافل الحوار من على منابر مهمة، ومحطات ذات قيمة في المجتمع الدولي. فينقض ليدافع. يبرع ببعض القضايا لكنه لا يراكم، وينهزم بكثير من الأحيان، لكنه لا يعتبر. ورغم ذلك يمتلك القدرة على الابحار بنفس العقلية والحيوية والنشاط. الدين حالة تفاعل إيجابي للتعايش والتفاعل. لا فوارق تبرز في هذا التعايش بل حالة من التماهي التام. قد يكون المنفى ؟ الغربة ؟ فليس هناك حالة نفي في الرواية إلا إذا لعب المكان والثقافة محورا في تجسيد دوائر للنفي السيكولوجي بمعنى الشعور الباطني بعدم الاندماج في الجديد. وهذه لا تبرز لدى المنسي، بل على العكس فهو مغرق بحالة الاندماج، حالة تتجلى في الندية بالتصدي للآخر، إلا ان هذه الندية خليط من الادعاء وشعور خفي بالدونية. تتجسد هذه الحالة بارتداء الأقنعة. أقنعة كثيرة، لا تبدأ بالتظاهر الخارجي على شكل اللباس، ولا تنتهي بالمعرفة السطحية كأن يردد أسماء المشاهير وأسماء كتبهم. المسيحي يتحول لداعية اسلامي، والمنسي...ليس انتهازيا. المنسي...حالة الشعور البيئي المشبع بالذاكرة المبنية على التفاعل والتعايش، وهذا يبرز في المنفى دائما. فالعرب يتفاعلون مع بعضهم بحميمية ظاهرة، حميمية ترجع الدين للماوراء تلغيه وتهمله، بانتظار بيئته وثقافته. المنسي هنا إسراف في التوغل بالحياة لاثبات الذات بالفطرة الغير متساوقة مع العصر، لذا فهي تتطاول وتتداخل بعفوية تامة، لا تعبأ كثيراً عندما ينكشف زيفها ولا تتردد من المغامرة ثانية وثالثة.

الكاتب هنا منحاز للمنسي منحاز للانسان في المنسي، للقدرة على الحياة والغرف منها. منحاز لتبسيط الأمور لدى بطله، حيث يدرك تماما الجوهر الكامن فيه. يتسامح معه رغم شدة المقالب والاحراجات التي يوقعه فيها، يحنق عليه ويثور إلا أنه لا يفتأ أن يغفر له ويدخل بالدور الذي يرسمه المنسي له ليلعبه راضياً راضخاً ومندمجاً. حالة الغضب والحنق تذوب وتتلاشى مع أول محطة يجلسان بها ويتناولان طعاما أو شرابا.

ما المميز في هذه الشخصية التي لازمت كاتبنا الطيب صالح ؟ ولماذا سكنت الطيب وألحت عليه وشكلت له قلق الكتابة؟

لا شك ان الطيب صالح مشغول بشخصية المنسي، ولكنه مسكون أيضا بالعام فيها، العام الذي يؤرخ للزمن وللسياق الذي تشغله الشخصيات. فالبطلان يواكبان النهوض القومي ونكسة حزيران (يونيو) وأحداث لبنان من زاوية الاعلام، فالشخصيتان تعملان لمحطة اذاعية بريطانية، وتتفاعلان مع الخارج ونظرته للداخل، والداخل وتصديه لقضاياه.

الطيب صالح لا يقدم هنا زورقا عربيا، بقدر ما يقدم عقلية، تتعامل بالشطارة والفهلوة في التعبير عن وجودها، بتبسيط الأمور، بالقفز عن الواقع، بالتطفل على الموضوعي المحكوم بالقوة. القوة التي تحدد تجاوز الواقع، ثورة العقل وتطور الصناعة والسيطرة على الطبيعة وتسخيرها.

كل هذا امام الحلبسة. سياسة الحلبسة العربية، التعبير المحبب لبطل الطيب صالح، ثقافة مبنية على التسلق والقفز الغير متسق والغير عقلاني، قد تصل إلا أنها لا تنجز أثراً.

المنسي ينتهي كأي برجوازي طفيلي، يمتلك مزارع وشركات في امريكا ولندن. لكنه ذو جذور من قش في منطقته. روح المرح والتفاعل مع الأصدقاء والطيب صالح منهم، وقد أكون أنا منهم وغيري ممن يعيشون المنفى. وقد يكون أكثر من منسي في دوائرنا. منسي نأنس له ونتفاعل معه ونحن إليه، ولكنه لا ينقذ دارفور، ولا يوصل طريقاً حراً وكريماً إلى دمشق.

قد اكون حملت رواية الطيب صالح اكثر مما ينبغي، وقد اكون قولّته ما لا يريد، والطيب صالح له في نفسي ووجداني الكثير. وكم فرحت عندما التقيته في احدى الأماسي ببرلين، ممتنا بذلك لصديقي الطيب الذي أحب، الدكتور حامد فضل الله، الذي عرفني على الكثير من السودانيين الطيبين. أقول قد أكون حملت العمل قراءة قد لا تكون في وارد الطيب، إلا ان الأعمال الأدبية الممتازة هي التي تحمل اكثر من تأويل وأكثر من اجتهاد، وعمله المميز «موسم الهجرة الى الشمال» ما زال في متناول البحث والنقد والسبر وهذا ما جعلني أتجرأ في تناول المنسي. عودنا الطيب صالح على ادخال أسلوبه السلس الصافي المتسق مع الحدث بجمالية في سبك الفكرة، فأنت لا تقف على الكلمة بقدر ما تنساق مع الحدث، وبذلك تكون الصياغة عملا تناسبيا معجونا بروح الحدث.

الطيب صالح

وبهذا يبقى عمل المنسي للطيب صالح من الأعمال الجميلة، تتمازج السيرة الذاتية فيه مع إفصاحها عن البيئة وتعرية الذات من أجل الالتصاق بالآخر والدخول إليه، قدمها الطيب صالح لنا بجهد مبذول وبسلاسة عالية وانسجام في الفكرة والأسلوب. وبالتأكيد وكما في كل كتابات الطيب صالح، تغادرها وتبقى آثار المتعة ملتصقة بخلاياك منها، تفاجأ بالبساطة لكنها تدخلك الى العميق العميق. حقيقة كم من مرة راودتني بعض التفاصيل وضحكت في سري وشاهدت هذا المنسي يتجسد بكثير من الشخصيات التي حولي وبي في بعض الأحيان. لذا وكي أصل وتصل أنت الى نتيجة لابد من قراءة العمل ثانية وثالثة للاحاطة به.

* كاتب عربي يقيم في برلين